نظرات في آحاديث الرسول ﷺ

(٢)

لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربّه

حتى يُسأل عن خمس. . .

«وماذا عمل فيما علِم؟»

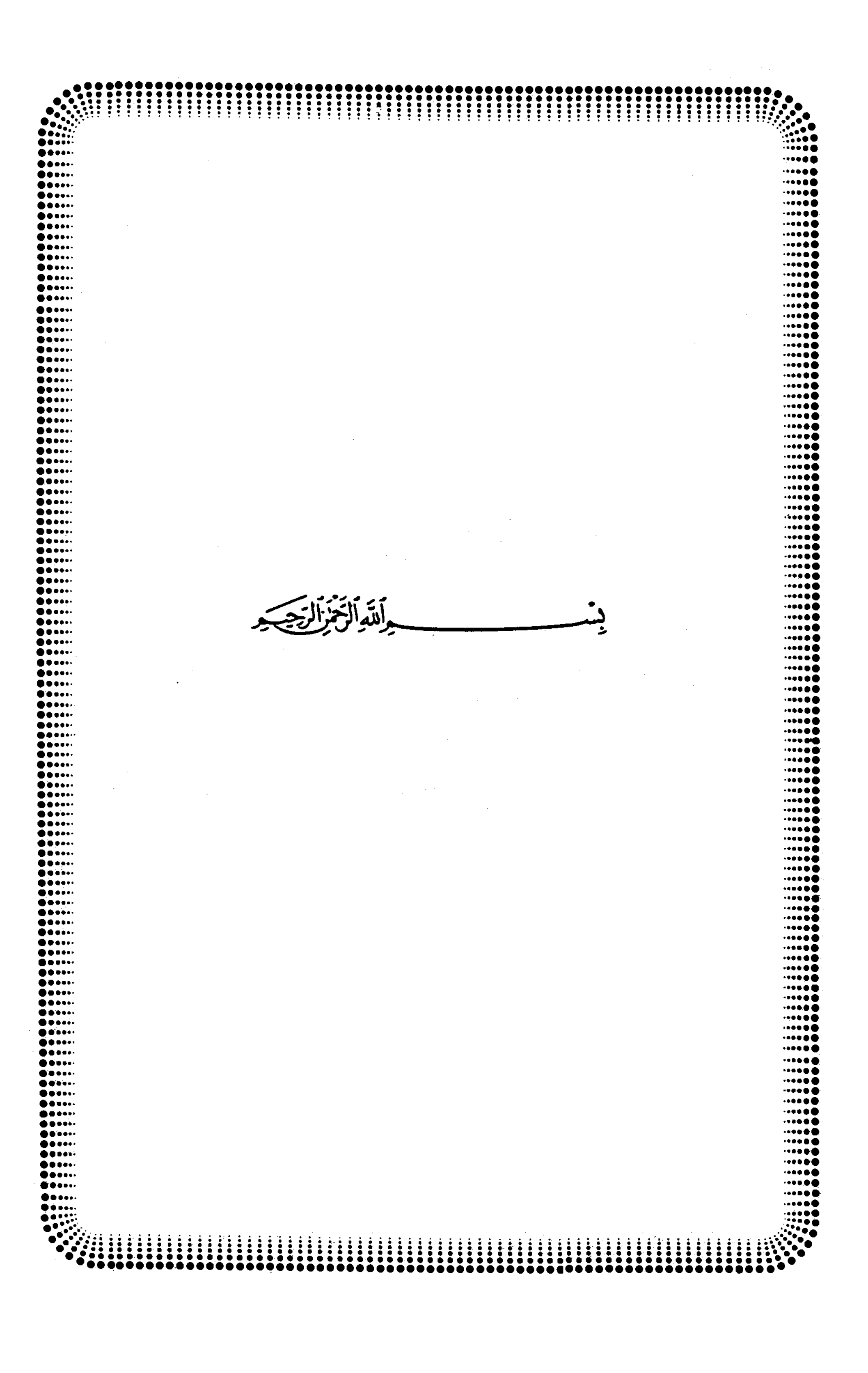
وَشيُ الحُلَل

في مَراتِبِ العِلْمِ والعَمَل

«رسالة في فقه الدعوة وتزكية النفوس»

حسين بن عودة العوايشة

دار الهجرة للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

وَشْيُ الحُلَل

في مَراتِبِ العِلْمِ والعَمَل

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩١م

دار الهجرة للنشر والتوزيع

هاتف: ٨٩٨٣٠٠٤ (٠٣) الثقبة - ٤٧٩٢٠٥٥ (٠١) الرياض

فاكس ٨٩٥٢٤٩٦ (٠٣)

ص . ب: ٢٠٥٩٧ - الثقبة ٣١٩٥٢

المملكة العربية السعودية

المقدمة

إنَّ الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ ولا تَموتُنَّ إلَّا وأَنْتُم مُسْلِمونَ﴾(1).

﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثيراً ونِساءً واتَّقوا اللهَ الَّذي تَساءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقيباً﴾(2).

﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقوا اللهَ وقُولوا قَوْلاً سَديداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُم ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظيماً﴾(3).

---

(1) آل عمران: ١٠٢. (2) النساء: ١.

(3) الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١.

أمـا بعـد؛ فإنَّ أصـدق الحـديث كتـاب الله، وخير الهدي هدي محمَّد، وشرّ الأمور محدَثاتُها، وكل مُحْدَثَة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضَلالة في النار.

وبعد؛ فمتابعة لسلسلة النظرات؛ رأيتُ أنْ أُسارع بتقديم حديث: «لا تزول قدما عبد. . .»؛ تزكيةً للنفوس، وإعداداً للموت؛ بادئاً بنفسي أولاً، ثم بالـدعـاة إلى الله (تعـالى) ثانياً، ثم لإخواني المسلمين؛ في مشارق الأرض ومغاربها ثالثاً، عسى الله (تعالى) أن ينفعَ بما كتبتُ، وأن تُجْنى مِن ذٰلك الثمرات آجلها وعاجلها.

واقتصـرتُ في بحثي هٰذا على جزئية واحدة من الحديث، وهي: «وماذا عمل فيما عَلِم؟».

والحـديث الـذي رأيتُ اختياره هو الحـاجة المنشودة، وهو مفتاح الخيرات، والسبيل إلى الجنـات ـ بإذن الله (تعـالى) ـ إنه سبب النجاة والنفع، ﴿**يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ ولاَ بَنُونَ إلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَليمٍ**﴾[1].

ولربّما تاه الكثيرون وتاهوا، وخطِئوا الطريق وضلوا، حين جهلوا ـ أو تجاهلوا ـ ترتيب ما هو أوْلى في العلم والعمل والدعوة، فموضوعي هذا ـ إن شاء الله (تعـالى) ـ إنمـا هو لإنقاذ نفسي وإخواني من الضياع والضلال والحيرة.

أسأل الله (تعالى) أن يرزقني العمل به، وأن يجعله خالصاً مُتقبَّلاً، يبدِّد الظلمات، وينير السبيل، وينفع به الأمة؛ إنَّه سميع الدعاء.

---

(١) الشعراء: ٨٩.

وَشْيُ الحُلَل في مَراتِبِ العِلْمِ والعَمَل

آياتٌ في جَزاء الأعمال

قال الله (تعالى): ﴿كُلوا واشْربوا هَنيئاً بما كُنْتُم تعْمَلون﴾[1].

وقال (سبحانه): ﴿ونُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُموها بِما كُنْتُم تَعْمَلون﴾[2].

وقال (سبحانه): ﴿كذلِكَ يَجْزي اللهُ المتَّقينَ الَّذينَ تَتوفَّاهُمُ الملائِكةُ طيّبينَ يَقولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُم ادْخُلوا الجَنَّةَ بِما كُنْتُم تَعْمَلونَ﴾[3].

وقال (تعالى): ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِروا اليومَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُم تَعْمَلُون﴾[4].

وقال (تعالى): ﴿وَمَنْ جاءَ بالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وجُوهُهُم في النّارِ هَلْ

---

(١) الطور: ١٩.

(٢) الأعراف: ٤٣.

(٣) النحل: ٣٢.

(٤) التحريم: ٧.

تُجْزَوْنَ إلَّا مَا كُنْتُم تَعْمَلون﴾[١].

وقال (سبحانه): ﴿. . . **ويَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُم تَعْمَلون﴾**[٢].

وقال (سبحانه): **﴿فاليَومَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيئاً وَلا تُجْزَوْنَ إلَّا ما كُنْتُم تَعْمَلون﴾**[٣].

يُبيّن الله (تعالى) أنَّ مصير الخلائق ـ على تفاوت درجاتهم ودركاتهم ـ لا يكون إلَّا بالأعمال، فبالعمل الصالح أو الطالح؛ يسعد الإنسان أو يشقى.

عن ابن مسعود (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال:

«لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربّه، حتى يُسأل عن خمس: عن عمْره فيما أفناه؟ وعن شبابه فيما أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ وماذا عَمِل فيما عَلِمَ؟»[٤].

وفي رواية أبي برزة (رضي الله عنه) مرفوعاً:

«لا تزول قدما عبدٍ حتى يُسأل: عن عُمْرِه فيما أَفناه؟ وعن علمه فيما فعل؟ وعن مالِهِ من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ وعن جسمه فيما أبلاه؟»[٥].

فإنَّ العبد لا مفرَّ له من السؤال عن أمور:

---

(١) النمل: ٩٠.

(٢) العنبكوت: ٥٥.

(٣) يس: ٥٤.

(٤) رواه الترمذي وغيره وانظر «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٩٦٩) و«السلسلة الصحيحة» برقم (٩٤٦).

(٥) عن «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٩٧٠).

عن عمره فيما أفناه؟ أفي البر والتقوى؟ أم في الإثم والعدوان؟

وعن شبابه فيما أبلاه؟ أفي الطاعات؟ أم المعاصي؟

وعن ماله من أين اكتسبه؟ أمن حلال؟ أم حرام؟

وهذه لا يُسأل عنها ولا يقامُ لها وزن ـ مع الأسف ـ، فالهم الأكبر أن تُجمَّعَ الأموالُ، سواء كانت حراماً أو حلالاً أو مشبوهة، وما أنْ يسمع الباحث عن العمل عن شاغر في مصرف ربوي؛ إلَّا وسارع إليه، أو في مصنع دخان؛ إلَّا وسعى إليه، إنّه يجري بلا تردّد، لأي عمل يُثمر مالاً.

وأمّا الفتاوى في إباحة ذلك، فحدِّث ولا حرج.

وأَوَدُّ بهذه المناسبة؛ أن أذكّر بهذا الحديث كل إنسان، قَبضَ الأجر على عمله الذي عَمِله، ووظيفته التي كُلِّف القيام بها، وأنّه لا تزول قدماه يوم القيامة، حتى يُسأل عن ماله، وكيف اكتسبه؟

إنَّك ترى العجَب العُجاب؛ في دوائر ومؤسسات البلاد العربية والإسلامية. فلربما ترى الشاي والقهوة والصّحف هي العمل الرئيس، فيُؤخّر الموظف المراجعين دون مبالاة أو اهتمام، إنّه يكره رؤيتهم؛ لأنهم يُقلِقون راحته ويكدّرون صفوه، يبحث عن أساليب التعقيد ووسائل التعطيل، فيقول للمراجع: «المعاملة ينقصها كذا، فارجع غداً».

يُعلِنون قبل موعد انتهاء العمل بساعة أو أكثر، عن انتهاء استلام المعاملات.

ولربما استيقظ بعض المسؤولين من نومه بعض مضيّ ساعتين من الدوام أو أكثر، والناس قد عطّلوا من أشغالهم وأعمالهم لهذه المعاملة،

فانتظَروا وانتظَروا ثمّ رجعوا بخفّي حُنين.

ولعلّ بعض النّاس يتعمّدون عدم إنجاز المعاملات، أو الإبطاء بها؛ إلّا بأخذ الرّشوة.

فلنتّق الله بأعمالنا ووظائفنا، نبدأ دوامنا على وقته، ونغادر على الموعد المحدد، نُخلِص في العمل، نعامل الناس بلُطف وحنان، نصبر على مشقّة العمل ابتغاء الأجْر من الله (تعالى).

ثم إنك مسؤول ـ يا عبد الله ـ عن وجه الإنفاق، أفي الطاعات أم المعاصي؟ وعن علمك ماذا عملت فيه[1]؟ فلا بُدَّ وهذه الحال؛ أن يتحوّل العلم إلى عمل وسلوك.

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال: أيكون عدم طلب العلم سبباً في النجاةِ، لطالما أنَّ العلم القليل يتطلّب العمل القليل؟

فأقول:

١ ـ لقد فضَّل الإسلام العلماء على غيرهم تفضيلاً، وبذلك كثُرت النصوص:

ومن ذلك قول الله (تعالى): ﴿**قُلْ هَلْ يَستوي الَّذينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذينَ لا يَعْلَمُون**﴾[2].

وقال (تعالى): ﴿**يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ**

(١) وسيكون بحثي ـ إن شاء الله (تعالى) ـ في تفصيل هذه الجزئية، كما أشرْت في المقدمة.

(٢) الزمر: ٩.

دَرَجات﴾[1].

وقول رسول الله ﷺ: «. . . ومَن سَلَك طريقاً يلتمس[2] فيه علماً؛ سهَّلَ الله له به طريقاً إلى الجنَّة»[3].

٢ ـ إنَّ تقصُّد عدم التعلّم حرام، والكلّ مطالب بالعلم والتعلّم، وحسب طاقته وقدرته.

٣ ـ هنالك من العلوم ما يكون تعلّمه أو تعليمه فرض عين، وبعضها فرض كفاية، فينبغي مراعاة هذا الأمر، وعلى قدر الاستطاعة يُحاسب المرء.

٤ ـ قد يقع الإنسان في مخالفة شرعية، لعدم معرفة الحُكْم، خلال فترة طلب العلم، فيُرجى له المغفرة، أما أنْ يتقصّد البقاء في الجهل؛ فهذا يخالف قوله (تعالى): ﴿فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُم لا تَعْلَمون﴾[4].

وعندما أفتى القوم ـ بلا علم ـ لذلك المصاب أن يغتسل، وأدّى إلى قَتْلِه؛ دعا رسول الله ﷺ عليهم، فقال:

«قَتلوه، قَتَلَهم الله، ألا سألوا إذْ لم يعلموا، فإنّما شفاء العِيِّ السؤال؟ إنّما كان يكفيه أن يتيمّم. . . »[5].

---

(١) المجادلة: ١١. (٢) أي يطلب.

(٣) بعض من حديث رواه ابن ماجه وغيره، وسنده صحيح على شرط الشيخين كما في «صحيح الترغيب» برقم (٦٦).

(٤) النّحل: ٤٣.

(٥) رواه أبو داود عن جابر (رضي الله عنه)، وانظر: تمام «تمام المنة» ص(١٣١) و«صحيح أبي داود» برقم (٣٢٥).

إزالةُ العوائق

بَيْد أن المعيقات عن العلم والعمل؛ يجب أن تُدرس لتُدرس[1]، وأوّل ما ينبغي النّظر فيه، شغلك وعملك ومهنتك، فمن خلال مزاولة ذلك؛ لا تنسَ غايتـك في هذه الحياة الدنيا، وهي إفراد الله (سبحانه وتعالى) بالعبادة والوحدانية، وتحقيق رضاه، فما خُلِق الإنسان إلّا لعبادة الله (تعالى)[2].

قال الله (تعالى): ﴿وَما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلّا لِيَعْبُدُون﴾[3].

فيجدر بالمسلم أن ينظر فيما يلزمه وأهله من المال، وعلى قدْر ذلك يعمـل[4]؛ لأنّ الإكثـار من ساعـات العمـل، للحصول على المزيد من المال، لا يكون إلّا على حساب العِلم والعمل والدعوة إلى الله (تعالى).

فاعلم هذا الأمر ثمّ افعل ما شئت.

---

(١) أي: لتمحى وتزال.

(٢) والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبّه الله (تعالى) ويرضاه من الأقوال والأعمال الـظاهـرة والبـاطنـة، فالأقـوال: كقراءة القرآن والذِّكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصـلاح ذات البين...، والأعمال الباطنة: كالرجاء والخوف والإنابة والحبّ والتوكّل، والأعمال الظاهرة: كالصلاة والزكاة والحجّ والصّدقة وصلة الأرحام والتزاور، وكلّ ذلك ينبغي أن يتوجّه فيه العبد لله (تعالى) وحده.

وفي كتاب «العبوديّة» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (تعالى) تفصيلٌ مطوَّل.

(٣) الذاريات: ٥٦.

(٤) أقـول هذا ولا أنسى أنّ المسلم يُؤجَـر على عمله وما يلاقيه من مشقّةٍ وعناء ـ شريطة ألا يكون ذاته مشبوهاً أو حراماً ـ ولكنّه يظل وسيلةً لغاية ـ وهي عبادة الله (تعالى) ـ.

وإنّـه لا يليق بالمسلم؛ أن يلهث وراء عمـل إضـافيّ، وهو يفتقر لمعرفة كثير من أمور دينه؛ في العقيدة، في الفقه، في الجوانب الخُلُقية، في الأركان والواجبات.

ومِنْ عجب؛ أن يحتجّ «اللاهثون» على مَنْ يُنْكر عليهم؛ بالنصوص العـامـة التي تحثّ على العمل الصالح، ثمّ هم يقولون: «الإسلام دين العمل»، ولا أدري ما نتيجة هذا العمل؟ أيعود نفعه لتزكية نفسه وتطهيرها؟ أم لصالح الأمَّة؟

وأقول جواباً على ذلك:

إنّ جماع الزوجة بنيّة الإحصان والتعفّف عبادة، فهل يعني أن يظل الإنسان مقيماً على هذا الأمر يُعطِّل الجمعة والجماعة والواجبات؟

وكذلك أكل الطعام للتقوّي على الطاعات عبادة، فهل يعني هذا أن نتّخذه دَيْدَناً؟

وكـذلـك السّعي للعمل الحلال والكسْب الطيّب، وكفّ اليد عن السؤال من العبادة، فهل يعني هذا أن نكثر منه، حتى يُعطّلنا عن صلاة الجماعة وصلة الأرحام والتعلّم والدعوةِ إلى الله (سبحانه)؟

فانـظر ـ يرحمـك الله ـ في هذا الأمـر، فإن كان العمـل الـواحد يكفيك؛ فلا موجب للثاني، وإن كانت الفترة الواحدة من الدوام تجزىء؛ فلا تذهب للأخرى، وإن استطعت الاختصار من عدد ساعات العمل[1]؛

---

(١) هذا لأصحاب الأعمال الحُرَّة ونحوها، وليس المراد أن يتهرَّب بعض العاملين من أعمالهم ووظائفهم، فهٰذا لا يجوز في دين الله (تعالى).

فلا تتردّد، بل إن كنت ممن وسَّع الله عليهم في الرّزق والمال، فتفرّغ للعبادة والعلم والدعوة، وفرِّغ من أبنائك وأهلك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

واذكر معي قوله ﷺ:

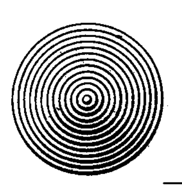
«إنَّ الله يقول: يا ابن آدم! تفرَّغ لعبادتي؛ أملأ صدرك غنى، وأسدّ فقرك، وإن لا تفعل؛ ملأتُ يديك شُغْلاً، ولم أسدَّ فقرك»[1].

وفي رواية: «ملأت صدْرك شغْلاً»[2].

جاء في «فيض القدير»: «تفرَّغ عن مهمّاتك لطاعتي، ولا تشتغل باكتساب ما يزيد عن قوتك وقُوت مُموّنك...».

وهكذا ينبغي على الإنسان أن يشتغل بطاعة الله (تعالى)، فإذا حصل على قوته، وقوت مَن يعولهم، وما لا بُدَّ منه؛ فلا يشغلنّ نفسه باكتساب المزيد؛ لأنّه بهذا يبني دنياه ويهدم آخرته.

والعجب العجب مِن أناس لديهم من الألوف المؤلّفة من الدنانير أو الدراهم، ولكنهم يجْرون جرْي الوحوش للدنيا، ويعانون من مشاكل ومتاعب من جرّاء التوسّعات في مشاريع ومشاريع يمكن الاستغناء عنها.



(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان وغيرهم، وهو من «السلسلة الصحيحة» برقم (١٣٥٩).

(٢) عن «صحيح ابن ماجه» برقم (٣٣١٥).

والآنَ ما العمل؟

لعلّك ستحرص أن تستمع إلى المزيد من الأشرطة العلميَّة النافعة، أو المحاضرات والمواعظ الطيّبة، أو أنْ تقرأ الكتب المفيدة.

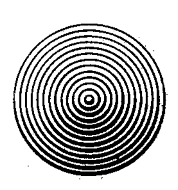
تدبرَّ حديث رسول الله ﷺ: «وماذا عَمِل فيما عَلِم؟»، واعلم أنّك مُحاسَب أمام الله (تعالى) على كلّ عِلم تعلمه.

راجع نفسك قبل أن تستزيد وتستكثر من القراءة والاستماع والمعرفة، واجعل ما لديك من العلم عَمَلاً يَدُبّ على الأرض.

بلغَك من العلم ما يتعلّق بتحريم الرّبا، سلْ نفسك: «هل حقّقْت العمل فيه؛ بترك التعامل به؟»، إنّك الآن مُطالَب للعمل على تركه، قبل كل شيء.

وقرأت من النّصوص الموجبة غضّ البصر، فهل أنت ممَّن يغضّون من أبصارهم عمّا حرَّم الله (سبحانه)؟ وإن كان الجواب لا؛ فلا داعي للتحرّي عن المحاضرات التي تبحث في أمور أخرى متحقِّقة فيك، إذ إن أهم ما تفتقر إليه الآن؛ أن تغض بصرك؛ ومراجعة كل أمر يُسهِم في تنفيذ هذا الأمر، قراءة واستماعاً وتعلّماً.

ادرس العوائق لتتخلّص منها، وابحث في الكتب أو الأشرطة المسجَّلة، ما يُيسّر لك هذا المطلب، ويُسهّل لك هذا المقصد.



بعض ما وَرَد في إزالةِ العوائق

عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه، قال: سمعت أبي وهو بحضرة العدوّ يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أبوابَ الجنّة تحت ظلال السيوف»، فقام رجلٌ رثّ الهيئة فقال: يا أَبا موسى! آنْت سمعْتَ رسولَ الله ﷺ يقول هذا؟ قال: «نعم»، فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كَسَر جَفْنَ[1] سيفه فألقاه، ثمَّ مشى بسيفه إلى العدوّ، فضَرَب به حتى قُتِل[2].

وعن جابر (رضي الله عنه) قال: قال رجل: أين أنا يا رسولَ الله إن قُتلْتُ؟ قال: «في الجنَّة». فألقى تمرات كنّ في يده، ثم قاتل حتى قُتل[3].

قام رجل رثّ الهيئة، فقال: «يا أبا موسى! آنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟».

فأول ما نبادِر إليه ونسارع؛ إزالة ما لم يصحّ عن رسول الله ﷺ فلا نعمل إلاَّ بعد التوثّق والتأكّد، أوَلسنا نحن أولى بالتمحيص منه، وقد كان يعيش في خير القرون؟

وبعد أن أزال هذا العائق العظيم، كَسَر جَفن سيفه، كيلا يُفكِّر بالعودة.

---

(١) أي: غلاف سيفه.

(٢) عن «صحيح مسلم بشرح النووي» (باب ثبوت الجنّة للشهيد).

(٣) رواه مسلم (باب ثبوت الجنة للشهيد) (١٨٩٩)، وفي حديث سويد: «قال رجل للنبي ﷺ يوم أُحد» وهو من رواية مسلم بنفس الباب.

ومثله ذلـك الصَّحابي الجليل الذي سَأل النبيَّ ﷺ عن مكانه إذا قُتِل، فما أن سَمِع بالجنَّة، حتّى ألقى تمرات كُنَّ في يده، ذلك لأنَّه يرى أنَّ هذه التمرات تؤخّره وتعيقه عن دخولها، ـ وهي ممّا أحلَّ الله (تعالى) ـ فكيف بالمعيقات والمؤخّرات التي حرَّمها الله (سبحانه)؟

وفي حديث أنس (رضي الله عنه): قال عُميْر بن الحُمام (رضي الله عنه): لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه؛ إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثمّ قاتلهم حتى قُتل[1].

فسعياً أخي المسلم للأمام، فألْقِ الهوى، وأزِلْ حبّ المال الذي حَرَمَك رضوان الله (تعالى)، وَذَرِ المحرّمات والشهوات والشبهات، وحبّ الإمارة والرّئاسة والظهور، اترك البغي والظلم بأصنافه وأشكاله.

ثمَّ لا تنسَ ـ يرحمك الله ـ أن تعجّل بالعمل الطيّب الصالح ـ ما استطعْت إلى ذلك سبيلاً ـ فلا تؤخّر ولا تؤجّل، وحذارِ حـذارِ من «سوف»؛ فإنّها من جُند إبليس.

سمع ذلك الرجل الفاضل رثّ الهيئة من أبي موسى (رضي الله عنه) قول رسول الله ﷺ: «إنَّ أبواب الجنَّة تحت ظلال السيوف»؛ فما أجّل أو أخّر القتال في سبيل الله (تعالى)، ولم يقُلْ: سأقاتل بعد سنة أو سنتين، أو بعد أن أُنهي مشروعي التجاري، أو أفرغَ من مشاغلي.

وكذلك الحال مع ذلك الصحابيّ الجليل (رضي الله عنه) فما أن سَمِع بالجنّة ثواباً من عند الله (تعالى)، لمن قُتل في سبيل الله شهيداً،

---

(١) عن «صحيح مسلم» (باب ثبوت الجنَّة للشّهيد) (١٩٠١).

حتى ألقى تمراته من يدِه، دون تأخر أو تردّد.

فالمسارعة المسارعة ـ أخي المسلم ـ لا التأجيل ولا التأخير.

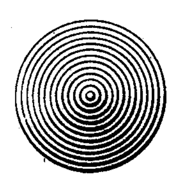
ثمّ سلْ نفسك ـ يا عبد الله ـ لم اعتَرتْني رغبة التأجيل؟ أهذه الرغبة من الدين؟ وهل هي ممّا يُرضيَ الله (تعالى)؟ أم أنّها أسلوب شيطانيّ يمهِّد للتفلّت من الائتمار بأمر الله (سبحانه)، والانتهاء عن نهيه؟

لا بُدّ لك أن تنتهز النّفحات الإيمانية في المسابقة للعمل النّافع، دون تأنٍّ أو تأجيل، هذا وأنت تضع في أعماقك قوله ﷺ:

«التُّؤدة في كلّ شيء، إلاّ في عمل الآخرة»[1].

فإذا سمعت بمن يدعو لعمل خير؛ من تبرّع لبناء مسجد، أو صلة رحم، أو إصلاح بين متخاصمين، أو عيادة مريض؛ فلا تتردّد في الاستجابة ولا تتمهّل.

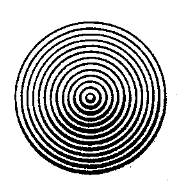
واعلم أنّ أنسب وقت للعمل هو اللحظة التي سمعْت فيها النّداء، وإلاّ فمن لك باللحظات التي بعدها، كما أنّ وسوسة الشيطان تظل تنمو مع التأجيل، فتفتر الهمّة ويضعُف العزم، وبذلك لا يُمكنك أن تخطو للإيمان خطوة واحدة، ولا مجال لتغيّر ما فيك من عِلّة أو ذنب أو عيب.



(١) رواه أبو داود وغيره، وهو من «السلسلة الصحيحة» برقم (١٧٩٤).

الواجباتُ قبلَ السُّننِ والمُستحبَّات

عليك - يرحمك الله - بالواجبات، قبل السنن والمستحبّات. ولا تنس أنَّ الواجبات بينها درجات، فقدِّم الأهم فالمهم. ثم انتقِلْ إلى السنن والمستحبات، وقدّمْها حسب الأهمية.



بمن تبدأ؟

كل ما قُلْت مما يتعلّق بنفسك، قبل غيرك، فابدأ بنفسك إذن قبل أخيك وصاحبتك وبنيك وأمّك، وانظر ما الذي ينقصك لتشرع بالعلاج.

فإن كان هناك عيب مشترك فيك وبمن ذكرْتُ، أو بمن تتصل بهم، فأشركْهم معك، لأنَّ رسول الله ﷺ يقول:

«من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1].

وهكذا قبل أنْ تفكّر في صرف الأوقات بين الشباب عِلماً أو عملاً أو دعوة.

تأمّل وتفكّر:

كيف علاقتك بالله (تعالى)؟

كيف خشوعك في الصلاة؟

اقرأ فيما يصلحك ويصلح صلاتك، ويزيد خشوعك، ويرقّق قلبك.

هل أنت مستجاب الدعوة؟ أم أنّك تلاحظ عدم الاستجابة في الغالب؟

انظر في اعتقادك وقوة يقينك وتوكّلك على الله (تعالى)، وارقب مطعمك ومشربك أهما من حلال أم من حرام؟ أم فيهما من الشبهاتِ ما فيهما؟

---

(١) رواه أحمد في مسنده ومسلم وغيرهما.

وإن كان المـوقف يدعو للأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر[1]، فماذا أنت فاعل؟

. . . كل ذلك لتعالج عدم استجابة الدعاء.

ربما يحتاج الأمر منك؛ إلى قراءة الأحاديث المتعلّقة بعذاب القبر ونعيمـه، وأهـوال القيامة، وعذاب النّار، وقد تستمر القراءة أياماً وأسابيع وشهوراً، يواكب ذلك العمل والمجاهدة.

لا بُدّ من حِساب النّفس وعلاج عيوبها، واعرض نفسك على الكتاب والسنّة لتعلم مَن أنت؟ وانظر ما للّه عندك لتعلم مالَكَ عند الله (عزّ وجل)، لقول رسول الله ﷺ:

«من أراد أن يعلَم ما له عند الله، فلينظر ما للّه عنده»[2].

هل أنت مستعدٌّ لِلقاء الله (سبحانه)؟

هل أدّيت حقوق العباد؟ أم أنّك دائم التأجيل والتسويف؟

هل ترجمت العلم عن التوبة إلى بكاء وإنابة؟

وهل حوّلْت ما قرأته عن المحبة في الله؛ إلى حبّ حقيقي للإخوة؟ هل تكثر من زياراتهم، وتتجاوز عن زلاّتهم؟ وهل تعين المحتاج منهم،

---

(١) إشارة لقوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمُرُنّ بالمعروف، ولَتَنهونّ عن المنكر، وليوشِكنّ اللهُ أن يبعث عليكم عقاباً منه فتدعونه، فلا يستجيبُ لكم». رواه أحمد في مسنده والترمذي وهو من «صحيح الترمذي» برقم (١٧١٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» وغيره، وهو في «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٣١٠).

تفرح لفرحهم وتحزن لحزنهم؟

هل تشعر بحلاوة الإيمان ولذّته؟

وإن كان الجواب بالسلب والنفي؛ فارجع لحديث النبي ﷺ:

«ثلاث مَنْ كُنَّ فيه؛ وَجَدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمان: مَنْ كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحِبّ المرء لا يُحبُّه إلّا لله، وأن يكره أن يعود في الكُفرِ، بَعْدَ أنْ أنقذه الله منه، كما يكْرَه أن يُقذَفَ في النَّار»(١).

هل الله ورسوله أحبّ إليك مما سواهما؟

هل تقدّم حبّ الله (تعالى) على المالِ والتجارةِ والشهوة والهوى؟

اختبر نفسك إذا سمعْت نداء المؤذّن، فإنْ لاحظْت الرغبة في تأجيل إجابة النداء، لمتابعة قضاء المصالح التجارية، فاعلم أنّ الشيطان قد فاز في استدراجه لك، وأن حبّك لله (سبحانه) ناقص.

وهكذا عليك أن توطّد نفسك، على تقديم أوامر الله (تعالى)، على أي أمرٍ من أمور الدنيا.

ثمّ تأمّل - يرحمك الله - الأمر الثاني: «وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلّا لله».

انـظر في حقيقة حبّك للناس: لماذا تحبّ؟ ولماذا تبغض وتكره؟ ولماذا تحبُّ شخصاً أكثر من غيره؟ ألأنّه من بني قومك؟ أم لماله ومنصبه؟ أم لمصلحـة من مصالح الدنيا؟ أم لاستجابته لأوامر الله (تعالى) وقيامِهِ

---

(١) رواه أحمد في مسنده، والبخاري ومسلم، وغيرهم، وهذا لفظ مسلم (كتاب الإيمان) (باب بيان خصال مَن اتّصف بهنّ؛ وَجَد حلاوة الإيمان).

بالأعمالِ الصالحة؟

لعلّك مازلت تُعاني من فقدان حلاوة الإيمان، فأين العلّةُ؟ لعل الأمر الثالث لم يتحقق؟ وهو قوله ﷺ: «وأنْ يكره أنْ يعود في الكفر، بعد أنْ أنقذه الله منه، كَما يكره أن يُقذَفَ في النار».

كيف كرهك للعودة للكفر؟ أتكرهه كما تكره أن تُقذف في النّار؟

وهل تعيش هذا الكُره، وتحيا هذا الخوف؟

ينبغي أن تُنمّي هذا الإحساس لديك، فتنمي الإخلاص للّه (تعالى)، وتسعى لتزكية نفسك.

تأمّل حديث أم سلمة (رضي الله عنها) قالت:

كان أكثرَ دعائه: «يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك»[1].

وكيف خشي إبراهيم ﷺ على نفسه مِن الشِّرك، فكان يدعو: **﴿واجْنُبني وبَنيَّ أن نعبُدَ الأصنام﴾**[2].

ولا تنسَ دعاء يوسف عليه السلام: **﴿توفّني مُسْلِماً وأَلْحِقْني بالصّالِحين﴾**[3].

ينبغي أَن تُسعِد نفسك بالخوف، تعيش وأنت تخشى الخلود في النار وعدم الخروج منها، تحذَر من الجوع الدائم والظمأ المستمر، تخاف من

---

(١) رواه أحمد في مسنده والترمذي وغيرهما، وهو من «صحيح الترمذي» برقم (٢٧٩٢).

(٢) إبراهيم: ٣٥.

(٣) يوسف: ١٠١.

بكاء لا ينقطع، ودم لو أُجريت فيه السفن لَجَرَت[1].

ولطالما اختلّت حلاوة الإيمان، أو ضَعُفت، فلا تقعدنّ ولا تجلسنّ، فكم مِن مسافر لأجل مداواة الأجساد؟ وكم من مُنفِق ماله ليعالج أمراض الجسوم؟ أوليست النفوس والقلوب أولى بالعلاج، وأمرها خلود في خلود؟

استحضِر الحديث «يُبعث كُلُّ عبدٍ على ما مات عليه»[2]، ثم توقّع الموت في كل لحظة، وَلأَنْ توافيك المنيَّةُ وأنت في حالِ إصلاح نفسك، خيرٌ لك من أن تمـوت وأنت تسعى لإصلاح غيرك، وتحاسب على ترك واجبات وفرائض، كالسّراج يحرق نفسه ويضيء للآخرين، كما في الحديث:

«مثل العالِم الذي يُعلِّم الناس الخير، وينسى نفسه، كمثل السراج، يضيء للناس ويحرق نفسه»[3].

وهذا ما كان يخشاه أبو الدرداء (رضي الله عنه) إذ يقول:

«إنّما أَخشى من ربّي يوم القيامة، أن يدعُوَني على رؤوس الخلائق، فيقـول لي: يا عُويمـر! فأقـول: لبّيك ربي، فيقـول: ما عَمِلْت فيما عَلِمت»[4]؟

---

(١) استقيته من حديث النبي ﷺ: «إنّ أهل النار ليبكون، حتى لو أُجريت السّفُن في دموعهم لجَرت، وإنّهم ليبكون الدم ـ يعني ـ مكان الدمع». أخرجه الحاكم وابن ماجه وغيرهما، وانظر «السلسلة الصحيحة» برقم (١٦٧٩).

(٢) رواه مسلم وغيره من حديث جابر.

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» و«الضياء» وانظر «اقتضاء العلم العمل» برقم (٧٠).

(٤) رواه الدارمي وغيره، وهو من «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (١٢٤).

مَنْ أُقدِّم في الدعوة؟

عليك بنفسك ـ كما سبق القول ـ قبل أخيك وأمّك وأبيك وزوجتك وأبنائك.

قال (سبحانه وتعالى): **﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُم وَأَهليكُم ناراً وَقُودُها النّاسُ والحِجارةُ عَلَيها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُم وَيفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُون﴾**[1].

ثم عليك بزوجك، لتعينك في تربية الأبناء، قبل جارك وصديقك، وقبل أن تدعُوَ أبناء العم، ادعُ أبناء أخيك، وادع أبناء العم، قَبْل أن تدعوَ الأصدقاء. . . وهكذا.

لماذا يُقال بتقديم أبنائك على أبناء أخيك مثلاً؟

إنّك إذا ما أصبحت تحت الثَّرى، حَزن عليك أبناؤك وأبناء أخيك وأحبابك، ولكن النسيان مع مرّ الأيام، مدركُهم لا محالة، إلاّ ما كان من أبنائك، فهم يدْعون الله (سبحانه) لك في كل يوم، وإن شئت قُل: في اليوم مرات، أو قُل: في كثير من السجدات.

إنك مازِلْت تؤجَر، وأنت في قبرك، كيف هذا؟

يُبَيِّنُ لنا هذا رسول الله ﷺ فيقول:

«إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو عِلمٍ

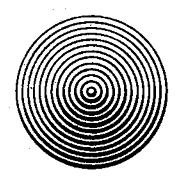
---

(١) التحريم: ٦.

يُنتفع به، أو وَلدٍ صالح يدعو له»[1].

ويقول ﷺ: «إنَّ أطيب ما أَكَلْتم مِن كَسْبِكُم، وإنَّ أولادَكُم مِن كسبكم»[2].

ومن عجب أن ترىٰ بعض الـدعـاة ـ بل الكثير منهم مع الأسف ـ ينشطون بقوة في دعوة الناس، لكنّ نساءَهم وأبناءَهم على حال لا يرضاها هو نفسه، فأي الناس أحقّ بالعناية والتربية والدعوة؟!



(١) رواه مسلم وغيره.

(٢) رواه البخاري في «التاريخ» والترمذي والنسائي وابن ماجه، وغيرهم وهو من «إرواء الغليل» برقم (١٦٢٦).

من حُسْنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه

ولا بُدَّ أن نبني مراتب العلم والعمل على أساس متين راسخ، وهو قوله ﷺ:

«مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركه ما لا يَعْنيه»[1].

جاء في «فيض القدير»:

«وفي إفهامه أنّ مِن قُبح إسلام المرء أخذه فيما لا يِعنيه، والذي لا يعني هو الفضول كله على اختلاف أنواعه، والذي يعني المرء من الأمور؛ ما تعلّق بضرورة حياته في معاشه، ممّا يُشبعه ويرويه ويستر عورته ويُعفّ فرجه ونحوه ممّا يدفع الضرورة دون ما فيه تلذذ وتنعمّ، وسلامته في مَعاده، وهو الإسلام والإيمان والإحسان، وبذلك يسلم من سائر الآفات وجميع الشرور والمخاصمات، وذلك مِن حُسْن إسلام ورسوخ حقيقة تقواه ومجانبته هواه، ومعاناة ما عداه، ضياع للوقت النفيس الذي لا يمكنْ أن يُعوَّض فائته، فيما لم يُخلق لأجله، فمن عَبَدَ الله على استحضار قُربِه من ربّه أو قُرْب ربه منه فقد حَسُن إسلامه كما مرّ».

وجاء فيه أيضاً:

«وممّا لا يعني العبد تعلمه؛ ما لا يهمّ من العلوم وتركه أهمّ منه، كمن تَرَكَ العِلم الذي فيه صلاح نفسه، واشتغل بتعلّم ما يصلح به غيره[2]،

(١) رواه أحمد في مسنده والتّرمذي وابن ماجه وغيرهم، وهو من «شرح العقيدة الطحاوية» برقم (٢٦٨).

(٢) قلت: وربما ضرَّ نفسه وغيره بهذا العلم.

كعلم الجـدل، ويقول في اعتذاره: نيّتي نفْع الناس ولو كان صادقاً لبدأ باشتغاله بما يُصلح نفسه وقلبه، من إخراج الصفات المذمومة، من نحو حسد ورياء، وكبر وعجب، وتراوس على الأقران وتطاول عليهم، ونحوها من المهلكات، قالوا: وذا الحديث ربع الإسلام وقيل نصفه وقيل كله» انتهى.

قلتُ: والإسلام فِعْل وترْك، فمِن حُسن إسلام المرء أن يترك كل ما لا يعنيه، ويذر ما لا يهمه، ويدع ما لا يفيده، وهو لا يفعل هذا الترك، إلا من حافز قد بلغ الغاية في الأهمية، وهو «مِن حُسْن إسلام المرء فعله ما يعنيه» والـذي يعنيه ويهمـه على مراتب ودرجـات؛ من اعتقـاد وإيمـان بالغيبيات، والمسابقة إلى الخيرات المنصوص عليها في الكتاب والسنة، وبـذلـك يكـون قد سعى لفِعـل كل مأمـور وترْك كلّ محظور، وهذا هو الإسـلام، وعلى قدر إمضـاء هذا تكـون منـزلة العبد عند الله (سبحانه وتعالى)، والله أعلم.

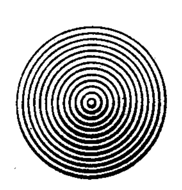
إذا فهمنا هاتين القاعدتين الجليلتين، استنبطنا منهما قواعد وقواعد، وعَلِمْنا أيضاً أنَّ ما يعنينا لا يمكن فهمه إلّا بالعلم، وما لا يعنينا، كذلك لا ندركه إلا بالعلم، وهذا يستلزم مِنّا أن نتفقّه في قاعدة «الأهمّ فالمهمّ» ثم ننـطلق إلى العمـل كذلـك على قاعـدة: «النظر في الأولى منه» وبذلك تتمحص العلوم والأقوال والدراسات فيخرج منها الفضول والمحرَّم والرّديء ويبقى النافع الطيب من ذِكْر لله وسُنّة وفِقه...

وبذلك أيضاً تتغربل الأفعال والأعمال والسلوكيات، فيخرج منها كل ما قبّحه الشرع في الكتاب والسنة، ويبقى النافع المُجدي منه؛ من تلاوة

لكتاب الله (تعالى)، وتدارس لسنة النبي ﷺ وأمرٍ بالمعروف ونهي عن المنكر. . .

وبهذا يرتّب المسلم أموره على هذا وينظّمها، ويجعلها في كلّ طيب نافع من نيّة أو قول أو فعل، ولا يرضى لنفسه السَّفْساف منها، كما في الحديث:

«إنَّ اللهَ (عز وجلَّ) كريمٌ، يحبُّ الكَرَم ومعالي الأخلاق، ويُبغضُ سَفْسافها»[1].



(١) عن «السلسلة الصحيحة» برقم (١٣٧٨). قال المناوي في «فيض القدير».

«. . . وهي الأخلاق الشرعية والخصال الدينية، لا الأمور الدنيوية، فإنّ العلوّ فيها نزول».

وقال أيضاً: (سَفسافها) أي: «حقيرها ورديئها».

وفي «النهاية» (السَّفساف): «الأمر الحقير الرّديء من كل شيء. وهو ضدّ المعالي والمكارم».

ومن المُضحِك المُبكي أن تسمع بعض الناس يستدلّ بهذا الحديث في معرض الردّ على من يدعوهم لمندوب أو مستحب، فالسَّفساف عندهم المندوب أو المستحب أو القشور ـ زعموا ـ ويردّ عليهم ما ذكرته آنفاً، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى: نطلب من هؤلاء أن يُفهمونا كيف يكون الشيء المستحب أو المسنون مكروهاً مبغوضاً عند الله (تعالى) في آن واحد؟! إذ أن لفظ الحديث «ويبغض سفسافَها» فهل هذا الذي عُدَّ من المستحبات يمكن أن يكون من المبغوضات؟!

ما هو أثر النصيحة والموعظة؟

عن حكيم بن حِزام (رضي الله عنـه) قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ فأعطاني، ثُمّ سألتُه فأعطاني، ثُمّ سألته فأعطاني، ثمّ قال: «يا حكيم! إن هذا المال خَضِرةٌ حُلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومَنْ أَخَذَهُ بإشراف نفس لم يُبارَك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خيرٌ من اليد السُفلى». قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بَعَثَكَ بالحقِّ لا أرزأ[1] أحداً بعدَك شيئاً حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر (رضي الله عنه) يدعو حكيماً إلى العطاء فيأبى أن يقبله، ثمّ إن عمرَ (رضي الله عنه) دعاه ليعطيه، فأبى أن يَقبل منه شيئاً، فقال عمر: إنّي أُشهِدكم يا معشر المسلمين على حكيم، أنّي أعرِض عليه حقَّه من هذا الفيء، فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم أحداً مِن الناسِ بعْد رسول الله ﷺ حتى تُوفِّي[2].

لقد سأل حكيم رسول الله ﷺ فأعطاه، وكان ذلك ثلاث مرات، ثم وجّهه النبي ﷺ إلى عفَّة النَّفس وعزّتها وعدم السؤال، فماذا كان من أمر حكيم (رضي الله عنه)؟ لقد أقسم بالله (تعالى) أنّه لن يعود لمثل هذا، ولَن يُنقص من أحدٍ شيئاً، حتى يُفارق الدنيا.

لم يسمع (رضي الله عنه) الموعظة، ويهز رأسه متأثّراً باكياً، ثم يعود في اليوم التالي إلى ما كان عليه، وكأنَّ شيئاً لم يكن.

---

(١) أي: لا أنقص ماله بالطّلب منه.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وهذا لفظ البخاري، «كتاب الزكاة» (باب الاستعفاف من المسألة) (الفتح/ ١٤٧٢).

لقد بقي على العهد في حياة النبي ﷺ وأبي بكر (رضي الله عنه)، فقد كان يدعوه ليُعطيه العطاء فيأبى.

وهكذا استمرَّ حتى خلافة عمر (رضي الله عنه)، وقد كان يعرضْ عليه حقَّه الذي قسم الله (تعالى)، من فوق سبع سمٰوات؛ من الفيء، فيأبى ذلك تأثّراً مِن موعظة رسول الله ﷺ، وظلَّ على حاله هذه؛ حتى توفّي (رضي الله عنه).

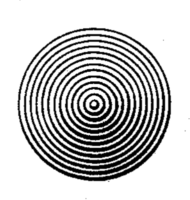
بَقِي مفعـول النصيحـة إلى آخر لحظة مِن حياته (رضي الله عنه) وحتى واراه الثّرى.

هذا هو العمل، وهكذا ينبغي أن نكون، نسمع ما نسمع، فنمْضي ونُنفِّـذ النصـائـح والمواعظ، لتتغيّر أحوالنا، وأحوال أمّتنا، ولكن واحزناه لحـالنا، لقد أكثَرْنا من الكتب والمحاضرات والخُطب والمواعظ، وكأنّها للثقافة والمعرفة، لا للعمل والتنفيذ، فإلى الله (تعالى) المشتكى.

ما أَجْمل المال وما أحلاه! لكنَّ حبَّ الله (تعالى) أجمل منه، وإنّ حب رسول الله ﷺ أحلى منه وأغلى.

كم كلّف حكيماً (رضي الله عنه) هذا الحب؟ كلّفه الكثير الكثير.

لقد سطّر لأمتنا دروساً في الصّبر، ودوَّن لنا كتباً في قوة الهمّة والعزم والعمل.



تدبُّر النُّصوصِ أوَّلُ العمل

عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأْ عليَّ». قلتُ: يا رسول الله! أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: «نعم». فقرأتُ سورةَ النِّساء، حتى أتيتُ على هذه الآية **﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلاءِ شَهِيداً﴾**[1]؛ قال: «حسْبُكَ الآن»، فالْتفتُّ إليه، فإذا عيناهُ تذرفان[2].

لقد كان رسول الله ﷺ يسمع آيات الله تُتلى عليه، فما أَنْ بَلَغَتْه آيةٌ تصوِّر مجيئه شهيداً على أمَّة محمد ﷺ، حتى قال: «حسبك الآن»، وأخذ يبكي ﷺ وَجَلاً وخَوفاً من الله (تبارك وتعالى).

تدبُّرٌ وتأمُّلٌ فيما يَسمع ويُتلى عليه ﷺ، ثُمَّ دموع وبُكاء.

إنّ هذا التدبّر والتأمّل ليقود ـ بلا ريب ـ إلى الدّعاء والعمل، فليكن هذا شأننا مع آيات الله (تعالى) وأحاديث رسول الله ﷺ.

وعن حذيفة (رضي الله عنه) قال: «صلَّيْت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح «البقرة»، فقلت: يركع عند المائة، ثمّ مضى فقلْت: يركع بها، ثمّ افتتح النّساء، فقرَأها، ثم افتتحَ آلَ عمران، فقرَأها، يقرأ مترَسِّلاً، إذا مَرَّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مَرَّ بسؤالٍ سَأَل، وإذا مرَّ بتعوّذٍ تعوّذ، ثُمَّ ركَع فجعل يقول: سبحان ربّيَ العظيم، فكان ركوعُه نَحْواً مِن قيامه، ثمّ قال:

---

(١) النساء: ٤١.

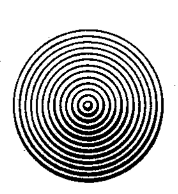
(٢) رواه البخاري ومسلم، وهـذا لفظ البخـاري (باب قول المقريء للقارىء: حسبك)، كتاب (فضائل القرآن).

سَمِـع الله لمن حَمِده، ثمّ قام طويلاً قريباً مما رَكع، ثم سَجَد، فقال: سبحانَ ربّيَ الأعلى، فكان سجوده قريباً من قيامه»[1].

وقال عوف بن مالك: «قُمت مع رسول الله ﷺ ليلة، فقام، فقرأ سورة البقرة، لا يمرُّ بآية رحمة، إلاَّ وَقَف وسأل، ولا يمرُّ بآية عذاب، إلاَّ وَقَف وتعـوّذ، قال: ثمّ ركـع بقـدْر قيامه، يقول في ركوعه: سبحان ذي الجَبروت والملكوت والكِبرياء والعَظَمة، ثُمَّ قال في سجوده مثلَ ذلك»[2].

لقد كان (عليه الصلاة والسلام) يقرأ القرآن في صلاته، متدبراً آياته، فإذا مرَّ بآية رحمة، وقف وسأل الله (تعالى)، وإذا مرَّ بآية عذاب، وقفَ وتعوَّذ، وإذا مرّ بآية فيها تسبيح سبَّح.

وهكذا أدّى التدبّر إلى أعمال القلوب، من خوف ورجاء، ثمَّ إلى الدعاء ـ أكرم أنواع العبادة ـ، وهذا كلّه بالتالي؛ لا بُدَّ أن يُؤثّر في صلاح سلوك العَبد، وخُلقه وتعامله مع الناس.



(١) عن «صحيح مسلم» (باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل) من (كتاب صلاة المسافرين).

(٢) رواه أبو داود والنّسائي، وهو من «صحيح الكلم الطيّب» برقم (٧٥).

الدُّعاء ثمرة العمل

قال الله (تعالى): ﴿قُلْ ما يَعْبَأُ بِكُم ربِّي لولا دعاؤُكم﴾[1].

وقال ﷺ: «الدّعاء هوِ العبادة»[2].

وقال ﷺ: «أفضل العبادة الدعاء»[3].

وقال (عليه الصلاة والسلام): «ليس شيء أكرم على الله (تعالى) من الدعاء»[4].

إنَّ مَنْ يتأمّل في هذه النصوص، يجد أنّ الدعاء سبب في نيل محبَّة الله (تعالى) ورضوانه، ولولاه لَما كان الله (سبحانه) يعبأ بنا.

وبيَّن النبيُّ ﷺ أنّ الدعاء أكرم العبادات وأفضلها.

فلماذا حَظيَ الدعاء بهذه المنزلة العظيمة؟

إنَّ الدعاء هو توجّه العبد بقلبه ولسانه إلى الله (سبحانه)؛ للمعافاة في الدنيا والآخرة، لكسب مرضاة الله (تعالى)، ودخول الجنّة، والزحزحة عن النّار.

وكم تُليت على المسامع مِن آيات الترغيب، وذِكْر الجنّات والنعيم

---

(١) الفرقان: ٧٧.

(٢) رواه أبو داود، والترمذي وقال: «حديث حسن صحيح» وهو من «صحيح الترمذي» برقم (٢٥٩٠).

(٣) رواه الحاكم وغيره، وهو من «السلسلة الصحيحة» برقم (١٥٧٩).

(٤) رواه أحمد في «مسنده» والبخاري في «الأدب المفرد»، وهو من «صحيح الترمذي» برقم (٢٦٨٤).

المقيم! ولكن ما الذي جناه من ذلك أبو جهل؟ وتقرَعُ الآذانَ آياتُ العذاب والترهيب والوعيد، فما هو حظّ أبي لهب من النّجاة منها، وهو يُعرض عنها؟

وهكذا تبدو الثّمار جليّةً شهيّة واضحة، حين تُقرأ آيات النّار، فيتعوّذ منها العبد ويستجير، وتُتلى آيات الجنَّة فيسأل اللهَ أن يكونَ مِنْ أهلها، بل إنَّ العَبد لا يُوفَّقُ للدّعاء أو استجابته؛ إن لم يكن مخلصاً صادقاً، ذلك لأنّ رسول الله ﷺ قال:

«. . . واعلموا أنَّ الله لا يستجيب دعاءً مِنْ قلب غافل لاه»[1].

ولَمّا سألت عائشة (رضي الله عنها) رسول الله ﷺ عن ابن جُدعان فقالت: يا رسول الله! ابن جدعان كان في الجاهلية يصِلُ الرّحم ويطعم المساكين، فهل ذلك نافعُه؟ قال:

«لا يا عائشة! إنّه لم يقل يوماً: ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[2].

فإنَّ عدم التوجّه بالدعاء لله (تعالى) قد خلّد ابن جُدعان في النّار، إنّه لم يقل يوماً: ربِّ اغفرْ لي خطيئتي يوم الدين.

وهذا يجعلنا نفهم قوله (تعالى):

﴿وقالَ ربُّكُمُ ادْعوني أَستَجِبْ لكُم إنَّ الَّذينَ يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبادَتي سيدْخُلُون جَهَنَّمَ داخِرين﴾[3].

فلمّا كان الدّعاء هو العبادة، كان عدمه الكُفر والاستكبار.

---

(١) رواه الترمذي وغيره، وهو من «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٥٩٤).

(٢) رواه مسلم وغيره وانظر «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٤٩) ففيها فوائد حسان.

(٣) غافر: ٦٠.

وأمّا شأن الأنبياء والمرسلين والمتقين بالدعاء فعظيم، فهم يسارعون ويسابقون له، ويحرصون عليه، فهو غذاؤهم ودواؤهم وحياتهم.

وقبل أن أقصَّ عليك بعض قَصص القرآن في هذا الأمرِ؛ أُريد أنْ أوجّه سؤالاً نختبر فيه أنفسنا، ونلتمس مواقعنا:

ها نحن تُتلى علينا آيات من سورة آل عمران، وهي قوله (سبحانه):

﴿إِذْ قَالَتِ امرَأَةُ عِمْرانَ رَبِّ إنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا في بَطْني مُحرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّميعُ العَليمُ. فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إنِّي وَضَعْتُها أُنْثىٰ واللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كالأُنْثىٰ وَإنِّي سَمَّيْتُها مَريمَ وإنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيم. فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وكَفَّلَهَا زَكريَّا كُلَّما دَخلَ عَلَيْها زَكريَّا المِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هٰذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْـدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشـاءُ بِغَيْـرِ حِسابٍ. هُنالِكَ دَعَا زَكَريَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الـدُّعـاءِ. فَنادَتْهُ المَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي في المِحْرابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيىٰ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وحَصُوراً ونَبِيّاً مِنَ الصَّالِحينَ. قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وامْرأَتِي عاقِرٌ قالَ كذٰلكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾[1]

فماذا نحنُ فاعلون بعد استماعها؟

إنَّ رؤية زكـريا (عليه السـلام) للرِّزق الـذي يسَّـرهُ الله (سبحانه) لمريم، وقد انقطعت أسبابه المادية، حَفَزَه أن يدعو ربَّه (سبحانه وتعالى).

---

(١) آل عمران: ٣٥ ـ ٤٠.

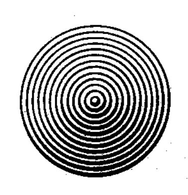
﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاء﴾.

وما أجمل أن نتأمّل كلمة «هنالك»! فهي اسم إشارة، يُشار به إلى المكان فيكون ظرفاً للمكان، ويُشار به إلى الزّمان، فيكون ظرفاً للزّمان، تدلّنا على الظّرف الذي اغتنمه للدّعاء، والزّمان الذي اهتبله للتضرّع لله (سبحانه وتعالى).

إنَّ الذي أعطى مريم الرزق، لقادر أن يَهَبه الذريَّة الطيبة، وكذلك كان.

﴿فَنَادَتْهُ المَلائِكَةُ وهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي في المِحْرَابِ أنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدَاً وحَصُوراً ونَبِيّاً مِنَ الصَّالِحين﴾.

ما هو موقفك أيها المسلم، وأنت تتحسس قُدرة الله (تعالى) وتُبصِرُ معجزاته؟ لا بُدَّ لك أن تتوجَّه إلى الله (تعالى) ربّ مريم الذي رزقها حيث لا رزق، وإلى ربّ زكريا الذي رزقه بالولد، حيث لا سبيل له ـ كما يقتضي النظر ـ فتدعوه (سبحانه) وتتضرّع إليه وتبتهل؛ أنْ يُفرّج كربك، ويكشف عنك الهم والغمّ، مهما عظم وتفاقم.



تعوّذ النبي ﷺ مِن عِلْم لا ينفع

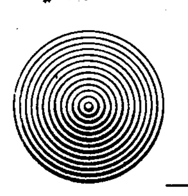
عن زيد بن أرقم (رضي الله عنـه) أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهمَّ إنِّي أعوذ بك مِنْ عِلْمٍ لا ينفع، ومِن قلب لا يخشع، ومِن نفس لا تشبع، ومِنْ دعوة لا يُستجاب لها»[1].

إنَّ تعوذ النبي ﷺ مِن علم لا ينفع، قد شمل أشياء كثيرة وكثيرة:

فانـظر مثـلاً إلى كتب الفلسفة وأهل الكلام فقد عمَّت وانتشرت، وقُرِّرت في المعاهد والجامعات، فإنَّ الطالب يقتُل معظم أوقاته ليفهم مراد المؤلف أو الكاتب، فإذا فَهِم ذلك، شَعرَ أنْ لا فائدة من ذلك لدينه ودنياه، ولا لمجتمعه وأمّته.

وإنّ الطالب ليقضي السنوات في حفظ أمور كثيرة، لا ترتبط بواقع الحياة، ولا تقرِّب مِن الله (تعالى) زُلفى!

وكم مِن تراجم لأشخاص تافهين ساقطين، تُقدَّم فيهم الاختبارات وتُنـال فيهم الشهادات، وتُرفع في دوائر دُول العالم لهم الدرجات؟ هذا ونحن نجهـل سيرة أصحـاب رسـول الله ﷺ، نجهل تفسير أقصر سُور القرآن، نجهل أيسر المسائل الفقهيَّة التي لا بُدّ مِن معرفتها، وقد يستعظم الناس إذا قُلت: نجهل أصولاً وأصولاً في العقيدة!



(١) مسلم وغيره.

عذاب مَن لا يعمل بعلمه

عن أسامة بن زيد (رضي الله عنه) أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيُلقى في النار، فتندلق أقتابه[1]، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: يا فلان! ما شأنك؟ ألست كنت تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؛ فيقول: كنتُ آمرُكم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن الشر وآتيه»[2].

وفي الحديث: «مررْتُ ليلة أسري بي بأَقوام تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أمّتك الذين يقولون ما لا يفعلون»[3].

وعن عمر بن الخطّاب (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «يظهر الإسلام حتى تختلف التُّجار في البحر، وحتى تخوضَ الخيلُ في سبيل الله، ثمّ يظهر قومٌ يقرؤون القرآن، يقولون: مَنْ أَقرأُ منّا؟ مَن أعلم منّا؟ مَن أفقه منّا؟». ثُمّ قال لأصحابه: «هل في أولئك من خير؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أولئك منكم، مِن هذه الأمّة، وأولئك هم وقود النّار»[4].

وفي الحديث: «والقرآن حجَّةٌ لك أو عليك»[5].

---

(١) أي أمعاؤه، مفردها (قِتْب) بالكسر.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٣) رواه البخاري وغيره.

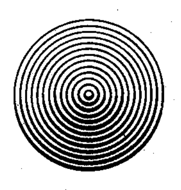
(٤) رواه الطبراني في «الأوسط» والبزار بإسناد لا بأس به، وهو من «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (١٣١).

(٥) جزء من حديث رواه مسلم وغيره.

تقع الفتن حين يُتعلَّم العِلم لغير العمل

عن علي (رضي الله عنه) أنّه ذَكرَ فتناً تكون في آخر الزّمان، فقال له عمر: متى ذلك يا عليّ؟ قال:

«إذا تُفُقّه لغير الدّين، وتُعُلِّم العلم لغير العَمَل، والتُمِست الدنيا بعمل الآخرة»[1].



(١) رواه عبد الرّزاق في «المصنّف» موقوفاً. وهو من «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (١٠٦).

أمارة العلم النافع

إن لكل شيء أمارات وعلامات ودلالات، وأمارات العلم النافع: أن يهدي إلى السلوك الحسن، والخلق الطيب، والخصال الحميدة.

وفي هذا قال أحدهم:

«من أوتي من العِلْم ما لا يبكيه، لخليق ألّا يكون أوتي علماً ينفع، لأنّ الله (تعالى) نَعَتَ العلماء، فقال:

﴿قُـلْ آمِنُوا بِهِ أوْ لا تُؤْمِنُوا إنَّ الَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إذا يُتَلىٰ عَلَيْهِم يَخِـرُّونَ لِلأَذْقَـانِ سُجَّـداً ويقـولونَ سُبْحانَ ربّنا إنْ كانَ وَعْدُ ربِّنا لمفعولاً، وَيَخرُّونَ للأذْقانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُم خُشوعاً﴾[1]».

وهكـذا كان العِلْم يُفضي بصـاحبه إلى الخشوع والسجود والبكاء ومحاسبة النفس والصدق مع الله (تعالى).

إنّ البكاء لأبرز علامة وخير دلالة على علم العالم وصِدْق الصادق.

ليت شعري ما العلم الذي يتعلّمه المرء إنْ لم يُبلغْه البكاءَ والخشوع والإنابة وحُسن التعامل مع الناس؟!

أوَليس العالِم أعرف الناس بربه (سبحانه وتعالى)؟

ألم يقرأ له من صفات العظمة والكمال والجلال ما يجعل قلبه يخشع وعينه تدمع؟!

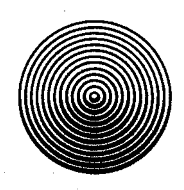
---

(١) الإسراء: ١٠٧.

أَلَم يقرأ في كتاب الله (تعالى) وحديث رسول الله ﷺ نصوصاً في النار وأهوال القيامة والقبر؛ ما تتصدع منه الجبال وتخشع من خشية الله (تعالى)[1]؟!

فانظر مكانك من هذا ـ يرحمني الله وإياك ـ ولا تنسَ ذلك القول الطيب:

«مَن أوتي من العلمِ ما لا يُبكيه، لخليق ألّا يكون أوتي علماً ينفع».



---

(١) ومن العجائب والغرائب أن يختار المدعوّ «علي الطهطاوي» في سرقته؛ كتابي «القبر: عذابه ونعيمه» ويكتب عليه اسمه ـ كذباً وزوراً ـ.

وما أدري إن كان قلب هذا اللص «كجلمود صخر»، لا تنفعه الموعظة ولا تفيده الذكرى؟

ألم تزجُرْه النصوص المرهِّبة والمرعبة عن فعله الشنيع؟

اللهمَّ يا مقلِّب القلوب! ثبِّتْ قلوبنا على دينك.

نداء إلى العلماء وطُلّاب العِلم

أوصيكم ونفسي بتقوى الله (تعالى)، فهيّا قبل المضيِّ في الأعمال، نجيب على بعض الأسئلة النّافعة ـ إن شاء الله (تعالى) ـ:

ـ هل أنت ممّن يشتغل بعلم الحديث ومصطلحه[1]؟

حذارِ أن تُشغَل بالوسيلة عن الغاية؛ فتقضي عمرك بجمع الشّواهد والطّرق والرِّوايات، والأسانيد، ثمّ تنسى الذي مِن أجله تجمعه؟

وأُريدُ أن أسوقَ لك هٰذه القصةَ القصيرة الظريفة لعلَّك تعتبر بها:

عن حمزة الكنانيِّ؛ قال: «خرَّجت حديثاً واحداً عن النبيِّ ﷺ من نحو مائتي طريق، فداخلني لذٰلك من الفرح غير قليل، وأعجبتُ بذٰلك، فرأيت يحيى بن مَعين في المنام، فقلتُ: يا أبا زكريا! خرَّجت حديثاً من مائتي طريق. فسكت عني ساعة، ثم قال: أخشى أن تدخل هٰذه تحت: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾»[2].

ولا تنسَ العمـل بمقتضى هذه النّصـوص، فإنّك ما خُلِقت ليُقال جمعْت وحقَّقْت وألَّفت وفعَلْت وصنَّفْت.

لعلّك تشتغل بتخريج حديث ما، وتبحث في إسناده ومتنه، وتدرُس أحوال رجالِه، تنتقل من كتاب إلى آخر، لتصل إلى الحقّ والحقيقة فيه.

---

(١) مع التنبيه لفضـل أهـل الحديث وشرف منزلتهم، فالذي قدّمه أهل الحديث للأمّة؛ هو مادة الخير والصلاح والاستقامة وطريق النجاة والسّعادة بإذن الله (تعالى).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٦ / ١٠٨).

على رِسْلك ـ يرحمـك الله (تعـالى) ـ . . . ما الذي يُبلِغُكَه هذا الحديث لو ثَبَت؟ ما مفاده وتوجيهه؟ ألِنافِلَةٍ من النّوافل؛ قد ثبتَت بنصوص أخرى كثيرة صحيحة ـ وأنت أيضاً مع من صحّحها ـ؟!

فقبل تخريجك هذا امضِ إلى أحاديثَ مخرّجة صحيحة تُرشِدك إلى واجبـات لم تَقُم بها ولم تعمل بمقتضاها، ولتكن حريصاً أن تقضيَ وقتك في إمضاء ما أوجب الدين عليك قبل كل شيء.

سل نفسك قبل أن تحقّق وتخرّج كتاباً من الكتب: هل سبقني لهذا الفِعل من أحَد؟ وهل هذا السابق مثلي أو خير منّي في هذا الأمر؟ فإن كان الجـواب: نعم؛ فلا تُقْـدِم على هذا الفِعـل، لأنّك مسؤول عن إضاعة الوقت، واتّباع الهوى.

ـــ أم أنّك مِمَّن يُعلِّم أحكام الترتيل:

فلا تقضينّ الوقت في تعليم الأحكام، وتنسى الذي من أجله تنزّل القرآن؟

وحذارِ ثمّ حذارِ أن تغفل عن العمل، بمقتضى الآيات التي تتلوها.

ها أنت تعلّم تلاميذك ترتيل سورة الفلق، فلا يكوننّ مبلغ همّك، بيان حكم الإخفاء والإظهار والقلْقلة؛ في قوله (تعالى): ﴿**ومِن شر حاسدٍ إذا حسد**﴾، بل وتفكّر في مدلولها، وأنّ الحاسد من أصحاب الشر، الذين يُغضبون الله (تعالى) ويُرضون الشيطان، فتعوّذ بالله منه، ثم ابكِ على ما في قلبك من الحسد لإخوانك، واسعَ بكل ما أوتيت من القوة لتنقية نفسك من هذا الداء.

ثمّ إنّه لمن العيب أن يكون العداء بينك وبين أقرانِك ممن تخصَّصوا بتعليم هذا العلم الطيّب.

أوَليست الآيات التي تتلونها وتُدرِّسونها كافية للجمع بين أفاضل الناس - فضلاً عمّن سواهم -؟! فلماذا العداء؟ أم أنه التسابق إلى الالتفاف حول زيد وعمرو؟

لا يا أَهل القرآن.. لا يا أَفاضل النّاس، مَن يتآلف إذا لم تتآلفوا؟ ومن يُخلص لله إذا لم تُخلِصوا؟ آلجهلة والعامَّة؟ أم الفسّاق والعصاة؟

حَريٌّ أن تجمعوا القلوب - بإذن الله - لا أن تختلف قلوبكم أنتم، ففي القرآن ما يُؤلِّف بين القلوب، وينقِّي النفوس، ويهدي لكل برّ.

وأخيراً أريد أن أذكّركم بقوله ﷺ:

«خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه»[١].

فكونوا من الخيار علماً وعملاً وسلوكاً، وفقني الله (تعالى) وإياكم إلى كل خير.

لا تُلهينّكم الشهادات[٢] - يا طلاب العلم - عن الدراسة الصحيحة

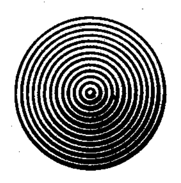
---

(١) رواه أحمد في مسنده والبخاري وغيرهما.

(٢) من المؤلم المُبكي أن أسمع أحد الأفاضل - ممن يدرس في كلية الشريعة - يَسأل عن «صحيح البخاري» وعنده «فتح الباري»، مُعلِّلاً هذا الطلب بالخوف من القراءة في «فتح الباري» قائلاً: إنني أخشى أن تذهب عيناي نحو شروح الأحاديث، فتلتقط فائدة فقهية مثلاً، أو أخرى لغوية، فأنصرف عن المقرر المطلوب ويضيع الوقت!

فمتى كان شرح الحديث وفهمه وتيسير العمل به إضاعة وقت؟ أم أنّها الدراسة =

والعلم النافع والعمل الطيب، ولا يكونن مبلغ همّكم تحصيل الدرجات عنـد مدرسيكم، واجتياز العـام الـدراسي بنجـاح، ضعوا خشية الله في قلوبكم، ولا تنسوا دائماً مقصد المسلم الواعي، وهدف العبد المنيب، وغاية المؤمن الصادق.



= للشهادة لا للعلم؟ وهذا هو واقع أكثر طلابنا ـ مع الأسف ـ ولله درّ القائل:

لقد هَزُلت حتى بدا مِنْ هُزالها　　　كُلاها وحتى سامَها كلُّ مُفلِس

نداء إلى الدعاة وأئمة المساجد

وأنتم أيُّها الدُّعاة إلى الله (تعالى)! احرصوا على العلم النافع والعمل الصالح، ولا تنسوا أن تكونوا مثلاً طيباً في الخُلُق الحسن، فلسان الحال أبلغ من لسان المقال.

إنّ أولى الناس تأثّراً[1] بك والداك وأهل بيتك وأبناؤك، فهل هذا التأثير وارد عندك أم لا؟ فانظر إذن في سلوكك وخلُقك، وزِنْه بسلوك المربي العامل الصادق المخلص.

إلامَ - أخي الفاضل - تظل تدعو وتنشط بين الناس وتنسى أهلَك وأبناءَك؟

حتامَ تظل - يرحمك الله - تمضي في الدعوةِ هنا وهناك، ثمّ تأتي لبيتك في آخر الليل لتنام؟

مثلك لا ينبغي أن ينسى قوله (تعالى):

﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا قُوا أنْفُسَكُم وأَهْلِيكُم ناراً وَقُودُها النَّاسُ والحجَارةُ عَلَيْها مَلائِكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤمَرُونَ﴾[2].

لا تُقْدِموا على دروسكم ومحاضراتكم دون تحضير جيد وإعداد

---

(١) قد يكون عدم التأثر أو ضعفه لغلبة الهوى والغفلة، ومُرادي ألا يكون خُلُق الداعي إلى الله (تعالى) سبباً في صد أحبابه وذويه - ما استطاع إلى ذلك سبيلاً -.

(٢) التحريم: ٦.

مُسبَق، فمهمتكم عظيمة فلا تستهينوا بها.

أليس من المؤلم أن يذهب الداعي لدرسه ولا يعلم ماذا سيقول[1]؟

لا تتسرّعوا بالفتاوى دون تثبّت، فإثم هذا كبير، وعقابه شديد.

لا ترْووا الأحـاديث إلّا وأنتم تعلمون أنّ أهل العلم المعتبرين قد حكموا عليها بالصحة أو الثبوت.

وأنتم أيها الأئمة! إن الأنظار تتجه لكم، فكونوا على قدر المسؤولية التي أُعطيتموها؛ بالعلم والعمل والدعوة والصبر على أذى الناس.

إنّه ممّا يبعث الحسرة في النفوس؛ أن يقرأ الإمام كتاب الله (تعالى) وهو لا يجيد أحكام الترتيل.

ذلك الإمام المتفرِّغ للإمامة، لا شغل له إلاَّ هذا، ولكنّه لا يُحْسِن شغله مع الأسف!

ماذا تفعل في فراغك الذي سيسألك الله (تعالى) عنه؟

كيف ترضى لنفسك أن تصلّي[2] بغير صفة صلاة رسول الله ﷺ؟

فأنت مثلاً تسجد وبين قدميك قرابة الشبرين!

ألا يحسن بك ـ يرحمك الله ـ أن تأخذ من عرض الساعات التي

---

(١) ومما يُدمي القلوب ويقطّعها، أن يفعل هذا من يأخذ راتباً على دعوته، فلا يحفزه هذا ليحاسب نفسه، فيخلص في التحضير والإعداد والعطاء والإفادة.

(٢) وبهذا لست أُغفل المخلصين من الأئمة الذين شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله (سبحانه)، وتمثل هذا في بذْل الوقت في العلم والعمل والدعوة إلى الله (تعالى).

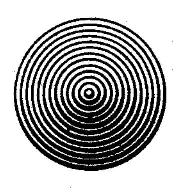
تلهو بها دقائق تتعلم فيها أن النبي ﷺ كان «يرصُّ عقبيه»[1] في السجود؟

أليس من الواجب عليك أن تقضي جلّ الوقت في العِلْم لتجيب على أسئلة الناس؟

كفاك ـ هداني الله وإياك ـ إجابات بالنّصوص العامة؛ لتستر عدم معرفتك بدليل وفِقه معظم المسائل.

كُفَّ عن قول: «في المسألة خلاف»، أو: «فيها قولان»؛ تهرُّباً من معرفة الحقِّ وتبليغه.

حسبك قولاً: «الدين يُسر»، وتحت هذا الشعار تُفتي بما لا يجوز الفتوى به.



(١) رواه الطحاوي وابن خزيمة والحاكم وصححه، ووافقه الذّهبي؛ كما في «صفة الصلاة» ص(١٢٤) الطبعة الحادية عشرة.

نداء إلى المؤلِّفين والنّاشرين

وأنتم أيهـا المؤلّفون والكُتاب! لا يكوننّ همّكم أن تكتبوا وتؤلّفوا؛ كيلا تكون هذه حجّة عليكم أمام الله (تعالى).

اكتبوا فيما ترونه يُصلح أنفسكم وإخوانكم وينفع أمّتكم، وحذار أن تجعلوا العلم تجارة تبتغون به عرض الحياة الدنيا.

لعلّك تكتب أو تشرح أو تحقّق نصوصاً تتعلّق بالحسد أو برّ الوالدين أو المحبّة في الله (تعالى) أو التقوى... إنّ مهمّتك لعظيمة، ولكنّك أوْلى من يجدُر به الانتفاع من هذه النّصوص، فسل نفسك: هل نقّيْتها من الحسد؟ ومن الذي تحسدُه؟ وفيم؟ ولا تُحسِن الظنّ بنفسك الأمّارة بالسوء، اتّهِمْها لتنجو، وسارع في العلاج والاستطباب... بادر بالتوبة إلى الله (تعالى) قبل أن تستكمل تأليفك وكتابتك.

ولْيكن هذا شأنك؛ مع كُلِّ كتابة وشرح، وتعليق وتعقيب، وضبط وتخريج، وتمحيص وتحقيق.

أوَليس من العيب أن يقضي المؤلّف شهوراً في كتاب، يعلم أنّ غيره قد كَتَب مثله أو قريباً منه أو أجود منه وأحسن؟

أين مراقبة الله (تعالى) في هذا الوقت؛ الذي سيسألك الله (تعالى) عنه يوم القيامة؟

هل تجد من المقبول ـ يرحمك الله ـ أن تقضي سنوات وأنت تقدِّم رسالة جامعية في حرف من حروف اللغة العربية للحصول على شهادة كبيرة؟!

أم تراه من المستساغ أن تقتل بعض الأعوام في الكتابة عن شخصيّة من الشخصيات، لو لم يعرفْها المسلم لما أثِم، وبدونها يستطيع ـ بإذنِ الله (تعالى) ـ أن يكون من السابقين عند الله (عزّ وجل)؟

كيف ترضى على نفسك أن تضيع بضع سنين في كتابة أمور لا يترتَّب عليها فِعل عمل صالح ولا ترْك أمر طالحٍ؟!

كيف تقبل على نفسك ـ هداك الله ـ أن تنقل من غيرك؛ دون أن تعزُو لمن نقلت عنه، أو تذكر الكتاب الذي عنه أخذْت؟ أتشبّعاً بما لم تُعطَ؟ فكيف تغفل ـ وأنت ممن يتصدر تعليم الناس ـ عن قوله ﷺ:

«المتشبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبَيْ زُور»[1].

أم حسداً من عند نفسك، تكتم ما لا ينبغي كتمانه؟ ألم تُبْلِغْك مؤلفاتك ودروسك ومواعظك إلى دحض الحسد وقتله، ورسول الله ﷺ يقول في هذا:

«لا يجتمعان في قلب عبد: الإيمان والحسد»[2].

أم تراها حبّ الشهرة والسمعة والرياء؟!

أخَفِيَ عليك قولُ العلماء: «بركةُ العلم عزوُه إلى قائلِهِ»؟ فمِن أجل هٰذا زالت البركة، وحلَّ المحق.

وأنتم معشر الناشرين! اتقوا الله (تعالى) ربّكم، فمما لا ينبغي

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرها.

(٢) بعض حديث رواه أحمد في مسنده والنسائي، وهو في «صحيح النسائي» برقم (٢٩١٢) من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه).

لأحـدكم أن يطبـع ويوزّع وينشر الكتب الكثيرة، وهو لا يعلم أنّها نافعة وقيّمة، إلاّ من أفواه الناس، وكثرة الإقبال عليها.

إنّ نفسـك التي بين جنبيك ـ أخي النـاشـر ـ أولى بالانتفـاع بهذا الخير، فأقبل على قراءة الكتاب النّافع، قراءة المتمحّص المتأمّل، وسارع إلى العمـل، فهـذا أحقّ أن تُشغـل عنـه بطبـع الكتـاب الثـاني والثالث والتاسع . . . «فإنّ ما قلّ وكفى خير ممّا كَثُر وألهى»[1].

واحذر أن يكون مِمّا طبعته حجّةٌ عليك يوم القيامة، بما فيه من بيان أوامر لم تأتمر بها، ونواهٍ لم تنتهِ عنها.

وإياكم ونشـر غير النـافـع، وحذارِ من نشْر الضلال، ثم حذارِ أن يتلعّب الشيطان بكم في فتاواه، فيحلّل لكم ما حرَّم الله (تعالى)؛ استكثاراً من المال وحباً له.

اجتنبوا السرقات من الكتب، من مؤلفيها، أو من دور النشر الأخرى، فالبركة منزوعة من هذا السبيل، والتعدِّي على حقوق العبادِ وعِرَة مسالكه، خَطِرة عواقبه.

انـظروا في أنـفـسكم: هل تزدادون قربى من الله (تعـالى) مع الاستمرار في الطباعة والنّشر، أم تشعرون بالانشغال عن الله (تعالى)؟

حاولوا أن تُوفّقوا ـ ما استطعتم ـ بين تزكية نفوسكم وكسب المزيد من نشر العلم.

ولكنّي قلت لكم وسأظل أقول: «لا تنسوا أنفسكم قبل كل شيء».

---

(١) جزء من حديث؛ سيأتي بتمامه تحت عنوان: «نداء إلى التجار».

نداء إلى التّجار

وأنتم يا معـاشـر التجار! اتقوا الله (تعالى) في أنفسكم، لا تبيعوا آخـرتكم بدنياكم، هل سدَّدتم ما عليكم من دُيون يلحّ أصحابها عليكم بطلبهـا قبل الانتقال إلى تجارة أخرى؟ وقبل التوسع في المشاريع، هل أديتم الحقوق المتعلّقة بما سبَقها؟

ألا تعلمون أنكم تجمعون الآثام إلى العَرَض الزائل؟ فما الذي تغنيه عنكم أموالكم ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلاَ بَنونَ إلاَّ مَنْ أَتىٰ اللَّهَ بِقَلْبٍ سليمٍ﴾[1]؟

والعجيب الغريب أن ترى من النّاس؛ من له من المال ما قد يكفيه وذريته وأبناءه آلاف السنوات لو عاشوها، ولكنك تجده يقضي أوقاته، وهو يلهث ويلهث وراء الحُـطام الفـاني، وهـو بذلـك يضيع جلّ الجماعات ويفوّت أكثر الواجبات.

اذكروا مع أعمالكم هذه قوله ﷺ:

«ما طلعت شمس قط إلاّ بُعِثَ بجنبتيها ملكان يناديان، يُسمعان أهل الأرض إلاّ الثقلين: يا أيها الناس هلمّوا إلى ربّكم، فإنّ ما قلّ وكفى خير ممّـا كَثُر وألهى، ولا آبت شمس قطُ، إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان، يُسمعان أهل الأرض إلاّ الثقلين: اللهم أعْطِ مُنفِقاً خلفاً، وأعْطِ ممسكاً مالاً تلفاً»[2].

---

(١) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٧) وابن حبان (٢٤٧٦) كما في «السلسلة الصحيحة» برقم (٤٤٣).

أقوال طيبة مِنْ كتابِ «اقتضاء العلم العمل»[1]
للخطيب البغدادي ـ رحمه الله (تعالى) ـ

ـ العلم والد، والعمل مولود، والعِلْم مع العمل، والرّواية مع الدّراية[2].

ـ لا تأنس بالعمل مادُمْت مستوحشاً من العلم، ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصِّراً في العمل، ولكن اجمع بينهما وإن قلَّ نصيبك منهما، والقليل من هذا مع القليل من هذا، أنجى في العاقبة، إذا تفضّل الله بالرحمة، وتمَّم على عبده النعمة[2].

ـ العلم يُراد للعمل، كما العمل يُراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم، كان العلم كَلًّا على العالم[2].

ـ كما لا تنفع الأموال إلَّا بإنفاقها، كذلك لا تنفع العلوم إلّا لمن عمل بها، وراعى واجباتها.

ـ العلم أَحد لذّات الدنيا، فإذا عُمِل به صار للآخرة.

ـ في الدنيا طغيانان؛ طغيان العلم، وطغيان المال، والذي يُنجيك من طغيان العلم العبادة، والذي ينجيك من طغيان المال الزهد فيه.

ـ متى أردتَ أن تشرُف بالعلم، وتُنسَب إليه، وتكون من أهله، قبل

---

(١) حُذفت الأسماء التي نسبت إليها الأقوال، مخافة ألا تصحّ النسبة إليها ـ إلّا ما ثبت منها ـ مع حذف يسير لبعض العبارات.

(٢) من كلام الخطيب البغدادي ـ بحذف يسير ـ من مقدمة كتابه «اقتضاء العلم العمل».

أن تعطي العلم ماله عليك؛ احتجب عنك نوره، وبقي عليك رسمه وظهوره، ذلك العلم عليك لا لك، وذلك أن العلم يشير إلى استعماله، فإذا لم تستعمل العلم في مراتبه رحلت بركاته.

ـ خير العلم ما نفع، وإنما ينفع الله بالعلم من علمه ثم عمل به، ولا ينفع به من علمه ثم تركه.

ـ علم بلا عمل كشجرة بلا ثمرة.

ـ إنّك في دار تمهيد، وأمامك منزلان، لا بد من أن تسكن أحدهما، ولم يأتك أمان فتطمئن، ولا براءة فتقصّر.

ـ إذا كُنْتُ أعْلَمُ عِلْماً يَقيناً — بأنَّ جَميعَ حَياتي كَساعَهْ
فلمْ لا أَكونُ ضَنيناً بها — وأَجعلُها في صَلاحٍ وطاعَهْ

ـ أنتَ في غَفْلةِ الأمل — لستَ تَدْري متى الأجل
لا تغرَّنك صِحَّةٌ — فهِيَ مِن أوجَعِ العِلَلِ
كلُّ نفسٍ ليومِها — صبحةٌ تقطعُ الأمل
فاعملِ الخيرَ واجْتَهِد — قبلَ أن تُمْنَعَ العَمل

ـ عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: «تعلّموا تعلّموا، فإذا علمتم فاعملوا»[1].

ـ عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: «مثل علم لا يُعمل به؛ كمثل

---

(١) قال شيخنا الألباني ـ حفظه الله (تعالى) ـ في تخريجه: «إسناد موقوف حسن» وانظر «اقتضاء العلم العمل» برقم (١٠).

كنز لا يُنفَق منه في سبيل الله (عز وجل)»[١].

ـ وقال الزهري: «لا يرضينّ الناس قول عالم لا يعمل، ولا عامل لا يعلم»[٢].

ـ من خرج إلى العلم يريد العلم[٣] لم ينفعه العلم، ومن خرج إلى العلم يريد العمل بالعلم، نفعه قليل العلم.

ـ العلم موقوف على العمل، والعمل موقوف على الإخلاص، والإخلاص لله يورث الفهم عن الله (عز وجل).

ـ من تعلّم العلم للعمل كَسَره[٤] علمه، ومن طلبه لغير العمل زاده فخراً.

ـ يوشك إنْ طال بكم العمر، أن يُتجمَّل بالعلم كما يتجمَّل الرجل بثوبه:

ـ العلم ما استعملك، واليقين ما حملك.

ـ إذا أحدث الله لك علماً، فأحْدِث له عبادة، ولا يكن إنما همّك أن تحدّث به الناس.

ـ لا يزال العالم جاهلاً بما علم حتى يعمل به، فإذا عمل به كان

---

(١) قال شيخنا: إسناد موقوف لا بأس به، «اقتضاء العلم» برقم (١٢) وقد جاء مرفوعاً في كتاب «العلم» لأبي خيثمة برقم (١٢).

(٢) إسناده حسن مقطوع على الزهري كما ذكر شيخنا في «الاقتضاء» برقم (١٣).

(٣) أي بدون العمل.

(٤) جعله متواضعاً ذليلاً لله (تعالى).

عالماً.

ـ عِلْم المنافق في قوله، وعِلْم المؤمن في عمله.

ـ اعْمَلْ بِعِلْمِكَ تَغْنَمْ أيُّها الرَّجُلُ لا يَنْفَعُ العلمُ إنْ لمْ يُحْسَنِ العَمَلُ
والـعِلْمُ زَيْنٌ وتَقْـوى اللهِ زينَتُـه والمتّقـونَ لَهُم في عِلْمِهِم شُغُـلُ
تَعَلَّم العِلْمَ واعْمَلْ مااستَطَعْتَ بهِ لا يُلْهِيَنَّـك عنـهُ اللَّهـوُ والجَـدَلُ
وعلِّمِ النَّاسَ واقْصِدْ نَفْعَهُم أبداً إيَّاكَ إيَّاكَ أنْ يعـتـادَكَ الـمَـلَلُ

ـ مَنْ قال حسناً، وعمل غير صالح، ردَّه الله على قوله، ومن قال حسناً وعمل صالحاً، رفعه العمل، وذلك بأن الله (تعالى) يقول:

﴿إليهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطيّبُ والعملُ الصَّالحُ يرفَعُهُ﴾.

ـ العلم آلة العمل، فإذا أفنى عمره في جمعه، فمتى يعمل؟!

ـ مهما فاتك من العلم فلا يفوتنك العمل.

ـ من لم ينظر بالعلم فيما لله عليه، فالعلم حُجّة عليه ووبال.

ـ إذا العِلْمُ لمْ تَعْمَلْ بِهِ كانَ حُجَّةً عليكَ ولَمْ تُعْـذَرْ بما أنتَ حامِلُ
فإنْ كنتَ قدْ أبْصَـرْتَ هٰذا فإنّما يُصَـدِّقُ قولَ المَـرْءِ ما هُو فَاعِـلُ

ـ وقال أحدهم: ليتني أنجو من علمي كفافاً، لا عليّ ولا لي.

ـ العلم إن لم ينفعك ضرّك.

ـ لا خير لك أن تتعلم ما لم تعلم، ولم تعمل بما قد علمت، فإنّ مثل ذلك؛ مثل رجل احتطب حطباً، فحزم حزمة ذَهَبَ يحملها، فعجز عنها، فضمَّ إليها أخرى.

ـ كَمْ إلى كَمْ أَغْدو إلى طَلَبِ العِلْـ ـمِ مُجِدّاً في جَمْعِ ذاك حَفِيّا[1]
طالِباً منهُ كُلَّ نَوْعٍ وفَنٍّ وغَريبٍ ولستُ أَعْمَلُ شَيّا
وإذا كانَ طالِبُ العِلْمِ لا يَعْمَـ ـلُ بالعِلْمِ كانَ عَبْداً شَقِيّا
إنّما تَنْفَعُ العُلومُ لِمَنْ كا نَ بها عاملاً وكانَ تَقِيّا

ـ إني لأحسب العبد ينسى العلم كان يعلمه، بالخطيئة يعملها.

ـ إنَّ العالم إذا لم يعمل، زلَّت موعظته عن القلوب، كما يزلّ القطر عن الصَّفا.

ـ مثل العالِم السوء؛ كمثل حَجَر وقعِ في ساقية، فلا هو يشرب من الماء، ولا هو يخلّي عن الماء، فيحيي به الشجر، ولو أنّ علماء السوء نصحوا لله في عباده، فقالوا: يا عباد الله! اسمعوا ما نخبركم به من نبيّكم وصالح سلفكم فاعملوا به، ولا تنظروا إلى أعمالنا هذه الفشلة، فإنّا قوم مفتونون، كانوا قد نصحوا لله في عباده، ولكنّهم يريدون أن يدْعوا عباد الله إلى أعمالهم القبيحة فيدخلوا معهم فيها.

ـ لأنا للقارىء الفاجر؛ أخْوف مني من الفاجر المبرز بفجوره، إنّ هذا أبعدهما غوراً.

ـ وقال أحدهم: إنّما نزل القرآن ليُعمَل به، فاتّخذ الناس قراءته عملاً[2]. قيل: كيف العمل به؟ قال: أي: ليحلّوا حلاله، ويحرّموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويَقِفُوا عند عجائبه.

---

(١) هي المبالغة في العناية، والاستقصاء في طلب العِلْم.

(٢) أي للاكتساب به.

ـ وقيل في قولـه (تعـالى): ﴿يَتْلونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾[1]: يتبعونه حق اتباعه، يعملون به.

ـ إذا أراد الله بعبدٍ خيراً؛ فَتَح له باب العمل، وأغْلَقَ عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شرّاً؛ فَتَح له باب الجدل، وأغلَق عنه باب العمل.

ـ كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به.

ـ تلقى الرجل وما يلحن حرفاً، وعمله لحن كلّه.

ـ أعربنا في الكلام فما نلحن، ولحنّا في الأعمال فما نعرب.

ـ لَمْ نُؤتَ مِنْ جَهْلٍ ولٰكِنّنا نَسْتُرُ وجْهَ العِلْمِ بالجَهْلِ
نَكْرَهُ أنْ نَلْحَنَ في قَوْلِنا ولا نُبالِي اللَّحْنَ في الفِعْلِ

ـ فمَا لكَ يَوْمَ الحَشْرِ سِوى الَّذي تَزَوَّدْتَهُ قبلَ المَماتِ إلى الحَشْرِ
إذا أنْتَ لَمْ تَزْرَعْ وأبْصَرْتَ حاصِداً نَدِمْتَ على التَّفْريطِ في زَمَنِ البَذْرِ

ـ وإذا افتَقَرْتَ إلى الذَّخائِرِ لم تَجِدْ ذُخْراً يَكُونُ كصالحِ الأعْمالِ

ـ ورأى أحدهم جيراناً له يجولون فقال: ما لكم؟ فقالوا: فَرَغْنا اليوم. فقال: وبهذا أُمِر الفارغ؟!

---

(١) البقرة: ١٢١.

جاء في «تفسير ابن كثير»: «إذا مرّ بذكر الجنّة، سأل الله (تعالى) الجنّة، وإذا مرّ بذكر النار تعوّذ بالله (تعالى) من النار».

وفيه أيضاً: «قال أبو العالية: قال ابن مسعود (رضي الله عنه) والذي نفسي بيده إنّ حقّ تلاوته أن يحلّ حلاله ويحرّم حرامه ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرّف الكلم عن مواضعه، ولا يتأوّل منه شيئاً على غير تأويله».

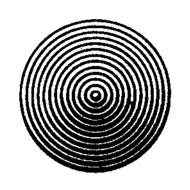
ـ أكثر الناس حساباً يوم القيامة: الصحيح الفارغ.

ـ اغْتَنِمْ في الفَرَاغِ فَضْلَ رُكوعٍ فَعَسىٰ أنْ يكُـونَ مَوْتُـكَ بغْتَـهْ
كَمْ صَحِيحٍ رَأَيْتَ مِنْ غَيْرِ سُقْمٍ ذَهَبَتْ نَفْسُـهُ الصَّحيحَـةُ فَلْتَـهْ!

ـ دعـا قوم رجلاً إلى طعام فقال: إنّي صائم، فقالوا: أفْطر اليوم وصُم غداً، قال: ومَنْ لي بغد؟

ـ قيل لأحدهم: أوصِ. قال: احذروا «سوف».

ـ إياك وتأمير التسويف على نفسك، وإمكانه من قلبك، فإنه محل الكلال، وموئل التلف، وبه تقطع الآمال، وفيه تنقطع الآجال.



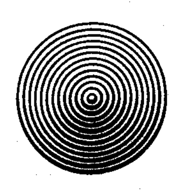
الخاتمة

هٰذا آخرُ ما وفَّقني الله (تعالى) لكَتْبِهِ.

عسى أن يكــون هادياً لكـاتبِـه وقـارئـهِ، حافـزاً لهم إلى العمـلِ والإخلاص بالسنَّة النبويَّة والعلم الصحيح.

إنه (سبحانه) سميعٌ مجيبٌ.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالَمين.



الفهرس

